

زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ

لَمْ يُحِبَّ حُبَّهُ أَحَدٌ!!

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يُودع جيش الإسلام
الذاهب لملاقاة الروم في غزوة «مُوتَةَ» ويعلن أسماء أمراء الجيش
الثلاثة، قائلا:

«عليكم زيدُ بن حارثة.. فَإِنْ أُصِيبَ زيد، فجعفر بن
أبي طالب.. فَإِنْ أُصِيبَ جعفر، فعبد الله بن رَوَاحَةَ».

فمن هو «زيد بن حارثة»..؟؟

من هذا الذى حمل دون سواه لقب «الحب».. حِبِّ رسول

الله..؟

أما مَظْهَرُهُ وشكله، فكان كما وصفه الرواة والمؤرخون:

«قصير، آدَم - أَى أَسْمَر - شَدِيد الأُذْمَة، فِى أَنْفِهِ فَطَس»..
وَأَمَّا نَبُؤُهُ، فَعَظِيمٌ جِدًّا عَظِيمٌ!!

أَعَدَّ «حَارِثَة» أَبُو «زَيْد» الرَّاخِلَة وَالمَتَاع لَزَوْجَتِهِ «سُعْدَى» الَّتِى
كَانَتْ تَزْمَعُ زِيَارَة أَهْلِهَا فِى بَنَى مَعْن.

وَخَرَجَ يُوَدَعُ زَوْجَتَهُ الَّتِى كَانَتْ تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهَا طِفْلَهَا الصَّغِيرَ
«زَيْدَ بَنِ حَارِثَة» وَكَلِمَا هُمَّ أَنْ يَسْتَوْدِعَهَا القَافِلَة الَّتِى خَرَجَتْ
الزَّوْجَة فِى صَحْبَتِهَا وَيَعُودُ هُوَ إِلَى دَارِهِ وَعَمَلِهِ، دَفَعَهُ حَتَّانُ خَفِيٍّ
وَعَجِيبٌ لِمَوَاصِلَةِ السَّيْرِ مَعَ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ..

لَكِنَّ الشَّقَّةَ بَعُدَتْ، وَالقَافِلَةُ أَغْذَتْ سِيرَهَا، وَأَنَّ لِحَارِثَة أَنْ
يُوَدَعَ الْوَلِيدَ وَأُمَّهُ، وَيَعُودَ..

وَهَكَذَا وَدَّعَهَا وَدَمُوعَهُ تَسِيلُ.. وَوَقَفَ طَوِيلًا مُسْمَرًا فِى مَكَانِهِ
حَتَّى غَابَا عَنْ بَصَرِهِ، وَأَحْسَّ كَأَنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَبْعُدْ فِى مَكَانِهِ.. كَأَنَّهُ
رَحَلَ مَعَ الرَّاحِلِينَ!!

وَمَكَّبَتْ «سُعْدَى» فِى قَوْمِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ لَهَا أَنْ تَمُكِّثَ..
وَذَاتَ يَوْمٍ فُوجِئَ الْحَيُّ - حَيُّ بَنَى مَعْن - بِإِحْدَى الْقِبَائِلِ

المنافسة له تُغَيِّر عليه، وتنزل الهزيمة بيني مَعْن، ثم تحمل فيها حملت من الأسرى ذلك الطفل اليفع «زيد بن حارثة»..

وعادت الأم إلى زوجها وحيدة.

ولم يكد «حارثة» يعرف النبا حتى خَرَّ صَعْقًا، وحمل عصاه على كاهله، ومضى يجوب الديار، ويقطع الصحارى، ويسأل القبائل والقوافل عن ولده وحبّة قلبه زيد، مُسَلِّيًا نفسه، وحاديًا ناقته بهذا الشعر الذى راح ينشده من بديهته ومن مآقيه:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أُدْرِ مَا فَعَلَ
أَحْيَ فَيُرْجَى؟ أَمْ أَقَى دُونَهُ الْأَجَلَ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِى، وَإِنِ لَسَائِلُ
أَغَاثِكَ بَعْدَى السَّهْلِ؟ أَمْ غَاثُكَ الْجَبَلُ
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَتَعْرِضُ ذِكْرَهُ إِذَا غَرُبَهَا أَفَلُ
وَإِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ هَيَّجَنَ ذِكْرَهُ
فَيَا طَوَّلَ مَا حُزْنِي عَلَيْهِ، وَيَا وَجَلَ

* * *

كان الرّق فى ذلك الزمان البعيد يفرض نفسه كظرف

اجتماعى يحاول أن يكون ضرورة..

كان كذلك فى «أثينا»، حتى فى أزهى عصور حريتها ورقيها...
وكان كذلك فى «روما»...

وفى العالم القديم كله.. وبالتالى فى «جزيرة العرب» أيضاً...
وعندما اختطفَت القبيلة المغيرة على «بنى مُعَن» نَصْرَهَا،
وعادت حاملةً أسراها، ذهبت إلى «سوق عكاظ» التى كانت
منعقدة آنئذ، وباعوا الأسرى...

ووقع الطفل «زيد» فى يد «حكيم بن حزام» الذى وهبه بعد أن
اشتراه لعمته «خديجة».

وكانت خديجة رضى الله عنها، قد صارت زوجة لمحمد بن
عبدالله، الذى لم يكن الوحى قد جاءه بعد. بيد أنه كان يحمل كل
الصفات العظيمة التى أهَّلته بها الأقدار ليكون غداً من المرسلين..

وهبت خديجة بدورها خادمها «زيداً» لزوجها «رسول الله»
فتقبله مسروراً وأعْتَقَهُ من فَوْره، وراح يمنحه من نفسه العظيمة
ومن قلبه الكبير كل عطف ورعاية..

وفى أحد مواسم الحج. التقى نفر من حَيِّ «حارثة» بزيد فى
مكة. ونَقَلُوا إليه لَوْعة والديه. وحملهم «زيد» سلامه وحنانه وشوقه

لأُمه وأبيه. وقال للحُجَّاج من قومه:

«أخبروا أبى أُنَى هنا مع أكرم والد»..

ولم يكذب والد زيد يعلم مستقر ولده حتى أغد السَّير إليه.. ومعه أخوه..

وفى مكة مضياً يسألان عن «الأمين محمد».. ولما لقياه قالَا له:

«يا ابن عبد المطلب..

«يا ابن سَيِّد قومه. أنتم أهل حَرَم، تفكُّون العاني،

وتُطعمون الأسير.. جثناك فى وَلَدِنَا، فامُنُّن علينا

وأحسِن فى فِداثه»..

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم تعلق زيد به. وكان فى

نفس الوقت يُقدِّر حق أبيه فيه..

هنالك قال لحارثة:

«ادعوا زيداً، وخَيْرُوه، فإن اختاركم فهو لكم بغير

فِدَاء.. وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختارُ عَلَى من

اختارنى فداء»...!!

وتهلَّل وجهُ «حارثة» الذى لم يَكُن يتوقع كل هذا السَّماح،

وقال: «لقد أنصفتنا، وزدَّتْنَا عَلَى النِّصْف»..

ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيد، ولما جاء سأله:
«هل تعرف هؤلاء»؟؟.

قال زيد: نعم، هذا أبي.. وهذا عمي...

وأعاد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله لحارثة.. وهنا
قال زيد:

« ما أنا بالذى أختار عليك أحدا، أنت الأب،
والعم»....!!

وَنَدَيْتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدُمُوعٍ شَاكِرَةٍ
وَحَانِيَةٍ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِيَدِ زَيْدٍ، وَخَرَجَ بِهِ إِلَى فَنَاءِ الْكَعْبَةِ، حَيْثُ
قَرِيشٌ مُجْتَمِعَةٌ هُنَاكَ، وَنَادَى الرَّسُولُ:

«اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي.. يَرِثْنِي وَأَرِثُهُ»...!!

وكاد قلب «حارثة» يطير من الفرح... فابْنُهُ لَمْ يَعْذُ حُرًّا
فَحَسِبَ، بَلْ وَابْنًا لِلرَّجُلِ الَّذِي تَسْمِيهِ قَرِيشُ «الصادق الأمين»
سَلِيلُ بَنِي هَاشِمٍ، وَمَوْضِعُ حَفَاوَةِ مَكَّةَ كُلِّهَا..

وعاد الأب والعم إلى قومهما، مطمئنين على ولدهما الذى
تركاه سَيِّدًا فى مكة، آمناً ومعافى، بعد أن كان أبوه لا يدرى:
أغاله السهل، أم غاله الجبل..!!

تَبَيَّنَ الرُّسُولُ زَيْدًا... وَصَارَ لَا يُعْرَفُ فِي مَكَّةَ كُلِّهَا إِلَّا بِاسْمِهِ
هَذَا - «زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ»...

وَفِي يَوْمٍ بِأَهْرِ الشُّرُوقِ، نَادَى الْوَحْيُ مُحَمَّدًا:
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
عَلَقٍ، اقْرَأْ، وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾...

ثُمَّ تَتَابَعَتْ نِدَائَاتُهُ، وَكَلِمَاتُهُ:
﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبُّكَ فَكْبَرٌ﴾...
﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنْ
اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾...

وَمَا إِنْ حَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبْعَةَ الرِّسَالَةِ حَتَّى
كَانَ «زَيْدٌ» ثَانِيَ الْمُسْلِمِينَ.. بَلْ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ...!!!

أَحَبُّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبًّا عَظِيمًا. وَكَانَ بِهَذَا
الْحُبِّ خَلِيقًا وَجَدِيرًا... فَوْفَاؤُهُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَعَظْمَةُ رُوحِهِ،
وَعِفَّةُ ضَمِيرِهِ وَلِسَانِهِ وَيدِهِ...

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يَزِينُ خِصَال «زيد بن حارثة»
أو «زيد الحَبِّ» كما كان يُلقَّبُهُ أصحاب الرسول عليه الصلاة
والسلام...

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها:

«ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقى
حيًّا بعد الرسول لاستخلفه»...

إلى هذا المدى كانت منزلة «زيد» عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم..

فمن «كان زيد هذا...؟؟

إنه - كما قلنا - ذلك الطفل الذى سُبِّى، ثم بيع، ثم حرّره
الرسول وأعتقه...

وإنه ذلك الرجل القصير، الأسمر، الأفطس الأنف، بيد أنه
أيضاً ذلك الإنسان الذى «قَلْبُهُ جَمِيعٌ، وَرُوحُهُ حُرٌّ»..

ومن ثمَّ وجد له فى الإسلام، وفى قلب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أعلى منزلة وأرفع مكان، فلا الإسلام ولا رسوله من
يعبأ لحظة بجاه النسب، ولا بوجاهة المظهر.

ففى رحاب هذا الدين العظيم، يتألق «بلال» ويتألق «صهيب» ويتألق «عمّار» و«خبّاب» و«أسامة» و«زيد»..
يتألقون جميعاً كأبرار، وقادة...

لقد صحح الإسلام قيم الحياة حين قال كتابه الكريم:
﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾...

وفتح الأبواب والرحاب للمواهب الخيرة، وللكفايات
النظيفة، الآمنة، المعطية..

وزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا من ابنة عمته
«زينب».

ويبدو أن «زينب» رضى الله عنها قد قبلت هذا الزواج تحت
وطأة حياتها أن ترفض شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو
ترغب بنفسها عن نفسه...

ولكن الحياة الزوجية أخذت تتعثر، وتستنفد عوامل بقائها،
فانفصل زيد عن زينب.

وحمل الرسول صلى الله عليه وسلم مسؤوليته تجاه هذا الزواج
الذى كان مسئولاً عن إمضائه، والذى انتهى بالانفصال. فضمّ

ابنة عمته إليه واختارها زوجة له، ثم اختار لزيد زوجة جديدة
هى «أم كلثوم بنت عُقْبَة»...

وذهب الشانئون يُرجفون فى المدينة: كيف يتزوج «محمد»
مطلقة ابنه زيد؟؟

فأجابهم القرآن مفرقاً بين الأدعياء والأبناء.. بين التبنى
والبنوة، ومقررًا إلغاء عادة التبنى، ومُعلنًا:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ، وَلَكِن رَّسُولَ
اللَّهِ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

وهكذا عاد لزيد اسمه الأول: «زيد بن حارثة».

والآن...

هل ترون هذه القوات المسلمة الخارجة إلى معركة
«الجموح»..

إن أميرها هو «زيد بن حارثة».

وهذه القوات الزاحفة إلى معارك «الطرف»، و«العيص»،
و«جسمى»، وغيرها..

إن أميرها جميعاً، هو زيد بن حارثة...

فهو كما سمعنا السيدة عائشة رضى الله عنها تتحدث من قبل: «لم يبعثه النبي عليه الصلاة والسلام في جيش قط، إلا جعله أمير هذا الجيش»...

حتى جاءت «غزوة مؤتة»...

كان الروم بإمبراطوريتهم الهرمة، قد بدءوا يوجسون من الإسلام خيفة... بل صاروا يرون فيه خطراً يهدد وجودهم، لاسيما في بلاد الشام التي يستعمرونها، والتي تتأخض بلاد هذا الدين الجديد، المنطلق في عنفوان واكتساح...

وهكذا راحوا يتخذون من الشام نقطة وثوب على الجزيرة العربية، وبلاد الإسلام...

أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم هدف المناوشات التي بدأها الروم ليُعْجِموها بها عود الإسلام، فقرر أن يُبادرهم، وَيُقْنِعَهُمْ بتصميم الإسلام على المقاومة... وهكذا..

وفي مجادى الأولى من العام الثامن الهجرى خرج جيش

الإسلام إلى أرض «البُلْقَاء» بالشام، حتى إذا بلغوا نُخُومَهَا لقيتهم
جيوش هرقل من الروم ومن القبائل المستعربة التي كانت تقطن
الحدود...

ونزل جيش الروم في مكان يسمى «مُشارف»...
في حين نزل جيش الإسلام بجوار بلدة تسمى «مُؤْتَة»، حيث
سميت الغزوة باسمها...

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذه الغزوة
وخطرَها فاختر لها ثلاثة من رُهبان الليل، وفرسان النهار...
ثلاثة من الذين باعوا لله أنفسهم فلم يعد لهم مطمع ولا أمنيّة
إلا في استشهاد عظيم يُصَافحون إثره رضوان الله تعالى،
ويُطالعون وجهه الكريم...

وكان هؤلاء الثلاثة وَفَقَ ترتيبهم في إمارة الجيش هم:

* زيد بن حارثة.

* جعفر بن أبي طالب.

* عبد الله بن رَوَاحَة.

رضى الله عنهم وأرضاهم، ورضى عن الصحابة أجمعين...
وهكذا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف يُودّع
الجيش يُلقى أمره السالف:

«عليكم زيد بن حارثة...»

فإن أُصِيبَ زيد، فجعفر بن أبي طالب...

فإن أُصِيبَ جعفر، فعبد الله بن رَواحة»...

وعلى الرغم من أن «جعفر بن أبي طالب» كان من أقرب
الناس إلى قلب ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم...
وعلى الرغم من شجاعته، وجسارته، وحَسَبه ونَسَبه، فقد جعله
رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمير التالى لـ«زيد»، وجعل
«زيداً» الأمير الأول للجيش...

وبمثل هذا، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقرر دوماً حقيقةً
أن الإسلام دين جديد جاء يُلغى كل العلاقات الإنسانية
الفاصلة، والقائمة على أسس من التمايز الفارغ الباطل، لينشئ
مكانها علاقات جديدة، رشيدة، قوامها إنسانية الإنسان!!

ولكأنما كان رسول الله عليه السلام يقرأ غيب المعركة المقبلة.

حين وضع أمراء الجيش على هذا الترتيب: زيد، فجعفر،
قابن رواحة.. فقد لقوا ربهم جميعاً وفقَ هذا الترتيب أيضاً!!

ولم يكد المسلمون يطالعون جيش الروم الذى حزره بمائتي
ألف مقاتل حتى أذهلهم العدد الذى لم يكن لهم فى حساب...

ولكن متى كانت معارك الإيمان معارك كثيرة..؟؟

هنالك أقدموا ولم يُيألوا... وأمامهم قائدهم «زيد» حاملاً راية
رسول الله صلى الله عليه وسلم، مُقْتَحِماً رماح العدو ونباله
وسيوفه، لا يبحث عن النصر، بقدر ما يبحث عن المَضْجَع الذى
ترسو عنده صفقته مع الله الذى اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بأن لهم الجنة.

لم يكن «زيد» يرى حواليه رمال البلقاء، ولا جيوش الروم
بل كانت رواى الجنة، ورَفَرَفَها الحُضْر، تحفّق أمام عينيه
كالأعلام، تُنبِئُه أن اليوم يومُ زِفافِه...

وكان وهو يضرب، ويقاتل، لا يُطَوِّح رءوس مقاتليه، إنما يفتحُ
الأبواب، ويفضُّ الأغلاق التى تحول بينه وبين الباب الكبير
الواسع، الذى سَيُدْلِفُ منه إلى دار السلام، وجنات الخلد، وجوار
الله..

وعائق «زيد» مصيره...

وكانت روحه وهى فى طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهى
تبصر جثمان صاحبها، لا يلفه الحرير الناعم، بل يُضَمِّخُه دم
طهور سال فى سبيل الله...

ثم تتسع ابتسامتها المطمئنة الهائلة، وهى تبصر ثانى الأمراء
«جعفرا» يندفع كالسهم صَوْبَ الراية لِيَتَسَلَّمَهَا، وليحملها قبل
أن تغيب فى التراب..